■ الفصل السادس

مجتمع البجا صورة مكبرة

مـؤتمر كرباويـب يعتبـر مـؤتمراً ناجحـاً بكـل المقاييس و لمشـاركة نسـاء البجـا الفضـل الأكبـر في ذلك، فعندما نتحـدث عـن ذلـك النجـاح بكـل هـذا الزهو ربما يبدو ذلـك للـبعض غريبـاً، فمـا معنـى أن ينجح مؤتمر! وما معنى أن تكون هناك مشاركة بحجم مشـاركة كرباويـب التـي لم تتعـد الإحـدى والسـتين امـرأة!، وهنـاك عشـرات المـؤتمرات التـي تعقـد ويحضـرها عشـرات المشـاركين، فمـا الـذي يجعـل مؤتمر كرباويب موضع زهو وفخر وهو بهذا التواضع، كما ذكرت ربما يبـدو ذلـك للـبعض ولكـن تختلـف الرؤية ويختلـف التقيـيم لمـن يعلـم طبيعـة المنطقـة وعاداتها وتقاليدها وأوضاع النساء بها، ولعكـس هـذه الصورة نبدأ بما كتبه أحد من المـراقبين والإعلاميـين الحاضرين للمؤتمر، وتعتبر شـهادة محايـد، إذ كتـب فايز السليك مقالاً مطولاً عن مؤتمر كرباويب في العدد العاشر مـن مجلـة عـزة الصـادر في أكتـوبر ٢٠٠٢م ، نستقطع من المقال بعض الأجزاء التي تسـهم معنـا في

هذا الغرض[1] ، تحت عنوان :-

خبر اليوم ، اقتحام الرجال قرى نساء البجا المعزولة

خبر الغد، المرأة في قيادة التجمع الوطني

يقول أهل الصحافة إذا عض كلب رجل فهذا ليس خبراً ولكن الخبر هو أن يعض الرجل الكلب، والخبر عندى ليس هو انعقاد مؤتمر التجمع النسوي فرع المناطق المحررة ودولة إريتريا في منطقة كرباويب فحسب، رغم أهمية الحدث والموقع الذي عقد فيه، لكن الخبر الحقيقى هو اقتحام الرجال لقرية النساء في المنطقة والخبر الأكثر أهمية هو مشاركة النساء في المؤتمر.

ومعروف عن قبائل الهدندوة تطرفها في قضية المرأة التي تعيش في عزلة أبدية تتضاءل أمامها عشرات المرات عزلة الروائي الكولمبي (قابريال غارسيا ماركيز) في (مئة عام من العزلة) من يصدق أن نكون قد دخلنا القرن الواحد و العشرين ونعيش عصر العولمة والقرية الكونية، بينما تكون في شرقنا قرى للرجال وقرى للنساء، مجتمع مشلول يعيش بنصف واحد فقط .

وصدقت (أم الجمعة) تلك القادمة من(يرول) ومن المناطق المحررة في جنوب السودان الواقعة تحت سيطرة (الحركة الشعبية لتحرير السودان) التي وقفت في المؤتمر النسوي سامقة، تعرب عن دهشتها عندما اكتشفت أن الشرق أكثر تهميشاً من الجنوب، كانت عظيمة وهى تحرض النساء على انتزاع حقوقهن كما فعلت رصيفاتها في الجنوب، فسودانا كله يدفع فاتورة ثمن التناقض بين المركز و الهامش المتمثلة في عدم المساواة في توزيع الثروات والسلطة ، والتمييز الثقافي والعرقى والدينى والجنسى ، فالأطراف المهمشة منسية ومهملة عن سابق إصرار وترصد لا لشيء سوى لاختلافها عن المركز ثقافياً أو عرقياً أو دينياً، أو بعدها عنه جغرافياً، والتهميش للجميع للرجال والنساء على السواء، لكن المرأة في الهامش تهميشها مضاعف لأنها (مهمشة المهمشين) كما يقول (القائد د. جون قرنق) وهل سيكون انعقاد المؤتمر الثانى للتجمع النسوي هو صرخة في وادى الصمت ؟ وخطوة في طريق الإبحار ضد التيار ؟ لقد لفت انتباه المدعوين للمؤتمر أن نساء المنطقة في الجلسة الافتتاحية جلسن (وراء حجاب) وهن اللواتى

(١)إصدارة عزة – العدد العاشر – أكتوبر/ ٢٠٠٢م.

يفصلهن عن الرجال أحجبة من الحقب الطويلة غير مرئية لكنها تتسلل من الدواخل سميكة وطويلة ، ممنوعة الاقتراب والتصوير، ولكن الجلسة الثانية رفع الحجاب بطلب منهن واستمرت الجلسات بقلوب مفتوحة، وبأذهان صافية وتأكد للجميع أننا نحن من يصنع الفواصل ونحن من يفرض الحصار ونحن أنفسنا من يدك تلك الفواصل ويخترق ذلك الحصار لنفك العزلة، أن ما حصل في كرباويب يمكن أن يكون بداية العلم بصعوبة الأشياء ليتم الالتحام بقضايا المرأة.

واصل فايز السليك مقاله متناولا هذه القضايا بشكل عام وقضية تمثيلها بالتجمع الوطني بشكل خاص، إلى أن ختم حديثه قائلا: أعتقد أن مؤتمر المرأة بكرباويب الشهر الماضي كشف عن أن الأرضية يمكن أن تكون خصبة إذا توفرت العزيمة والإصرار، وأن المرأة يمكن أن تحقق مكاسب كثيرة وتنتزع كثيراً من الحقوق المغتصبة خاصة وأننا نعلم أن الحقوق تنتزع ولا تمنح هبة، ونتمنى أن يكون الخبر عندنا غداً هو عقد المؤتمر العام للمرأة السودانية بالأراضي المحررة جنوب السودان وليس تمثيلا للمرأة في هيئة القيادة وحدها وإنما انتزاعها مواقع قيادية في التجمع الوطني وأحزابها، ولعب أدوار فاعلة في صنع وبناء السلام، وفي أجهزة ومؤسسات دولة السودان الجديد) [1].

(انتهى).

ما سرده فايز يعطي صورة مكبرة لمؤتمر كرباويب و لظروف نساء البجا بتلك المناطق، وللمزيد من إلقاء الضوء على أوضاع النساء وعادات وتقاليد المنطقة، وحياة البجا بما تحمل من سمات مميزة وأعراف بطعم خاص وبنكهة البن الذي يعتلى الصدارة في ثقافاتها ودلالات الكرم عند أهلها.. نصطحب ما قالته (الحاجة آمنة) وهى من قبيلة الهدندوة ومن النساء اللاتى استطعن أن يأخذن من الحياة ما ينير لهن الدروب دون الحاجة لتطويع القلم والورقة، ونجحت إلى حد كبير في تربية أطفالها خاصة البنات منهم وتعليمهن والخروج بهن إلى فضاءات أوسع وواقع أفضل بكثير من الواقع الذي نشأن فيه كأمهات، فأخرجت إلى الحياة جيلاً واعياً ومتعلماً ومثقفاً، عرف كيف يجمع بين العلم وثقافة المنطقة دون المساس بقداسة الإرث الثقافي الذي يميزهم كقبائل عن

(١)مؤتمر المرأة واحد من قرارات مؤتمر التجمع الوطني بمصوع وكان مقرراً عقده بالأراضي المحررة جنوب السودان وسنتناوله بالتفصيل في الباب الثالث.

بقية أهل السودان.

حكت لي الحاجة آمنة عن حياة أهل البجا إذ طلبت منها أن تحدثني عن عاداتهم وعما يرتبط بتقاليدهم في الخطبة والزواج، أماكن السكن، الولادة وممارسة الختان وغيرها من العادات والتقاليد التي ترتبط بحياة النساء، حدثتني بفخر كبير وحب أكبر لتلك السمات التي تميز مجتمعها عن بقية المجتمعات في عاداتهم وتقاليدهم التي لا ترى فيها ما ينقص من قدر النساء، بل على العكس أن الكثير منها يعبر عن احترام قبائل المنطقة للدور الطبيعي للمرأة في نطاق الأسرة والقبيلة، والحفاظ على النسل والأصل ، فقالت :

السكن:

تعيش النساء في قبائل البجا داخل قرى معزولة عن أماكن سكن الرجال بمسافة لا تقل عن ٢ كيلو متر تقريباً، القرية الواحدة تضم بداخلها نساء القبيلة الواحدة (أى العائلة الواحدة) وتتباعد قرى نساء القبائل المختلفة بمسافات تكفي لحجب النساء منعاً للاختلاط وإحداث الفتن بين القبائل، وتضم قرى النساء في داخلها خيام الأسر أي بيت الأسرة ولكل أسرة بيت مكون من عدد من الخيام تعرف لديهم بـــ(البدايقو) تصنع البدايقو من البرش والشملة المصنوعة من شعر الماعز، يوجد بدايقو للزوجين وآخر للأبناء وثالث للبنات وقد يزيد عددها حسب احتياجات الأسرة، يفصل بين بيوت الأسر مسافات لاتقل عن بضعة أمتار لاحترام خصوصيات الأسر. أما الرجال فيقيمون في مجمع مفتوح يعرف بـــ(الشفت) وتعنى (ديوان الرجال) وهو محل مكشوف ومحاط بالأشجار يقضون فيه ساعات النهار ويستقبلون فيه ضيوفهم ويكرمونهم، فالرجال لدى قبائل البجا يقومومون بإعداد القهوة إذ يعتبر البن شيئًا أساسيًا في حياة أهل الشرق بشكل عام، يعتمدون في طعامهم على العصيدة التي تقوم النساء بإعدادها أم اللحوم فمسؤولية الرجل حيث يقوم رجال الشفت بذبح البهائم وإعدادها وإرسال نصيب النساء ناضجاً ويفضلون الشواء بما يعرف لديهم بشواء (السلات) والذبيحة التي تذبح لإكرام الضيف تُعرف ب(الهريس) أي الكرامة .... ويعمل الرجال على عقل جمالهم بجانبهم في الشفت ويتركون النار موقدة أثناء الليل كمرشد للزائر وتعرف بـ(مدرك).

يُعتبر الشفت مكان دائم لإقامة الصبيان والشباب غير المتزوجين، أما المتزوجون

من الرجال يذهبون إلى حيث الأسرة بعد مغيب الشمس وغياب أول نجمة تظهر في السماء وتسمى عندهم (أباب كهربي) وتعني (ربط السخلان) بعد اختفاء النجم يذهب الرجل المتزوج إلي زوجته وأسرته ويغادر قبل بياض الفجر، أما الطفل فعند بلوغه سن الثامنة يغادر قرية النساء ويذهب إلى الشفت، يحرم اختلاط الأطفال من البنين والبنات منذ سن العام أي بعد أن يبدأ الطفل في المشي يجب إبعاده من مخالطة البنات، وتلعب البنات والأولاد كل على حدة .

تزيين البدايقو :-

تحتوي البدايقو على ما يشبة العنقريب في شمال السودان ولكنه منسوج بالجلد وعريض يسع ١٢ فرداً ويسمى (مسته) وتوجد بالداخل زينه عبارة عن برش يسمى «مبرر» فوق المبرر يفرش برش آخر ناعم وجميل مزركش بالألوان الصارخة يسمى (أتنيت) يحاط السرير بالشملة ويرفع بالشعب وهو ما يعرف أيضاً لدى سكان الشمال بالمرق مع وجود فتحة لدخول الشخص – تغطى الشملة من الخارج من الناحية الأمامية بقماش جديد وملون يسمى (هيرات) ويُعتبر الهيرات واحد من أدوات الزينة داخل السكن خاصة في بدايقو العروسين، أما على محيط البدايقو من الداخل يعلق برش أخر مشغول بريش النعام والسكسك يسمى (ساكيت).

الزواج :-

لايمكن للشباب رؤية البنات حتى في حالة الخطبة ويتم ذلك بواسطة والدة العريس – ولابد أن تكون البنت من داخل القبيلة أي (العائلة) ويفضل ابن العم أو ابن الخال ..لذا الاختيار يتم عن طريق والد العروس وكذلك والدته .... والبنت لا تُشار في الزواج وعليها أن تقبل بمن اختاره كبير الأسرة سواء كان الأب أو الأخ وعادة ما تحدث إشكالات تصل إلى حد الخصومة بين أبناء العمومة بسبب بنت العم والتي يرى كل واحد منهم أنه أحق بها من غيره.

المهر :-

أولاً : هناك مال يقدم في مرحلة الخطوبة ويسمى (كدباب) وهو عبارة عن مال يوزع لكبار السن من رجال القبيلة أي الجدود. أما مهر الزواج يقدر بعدد ٢-٣ بقرة حسب إمكانية العريس ويسمى (الصداق)، وبعد الزواج تقدم شيلة من الملابس والأحذية

والروائح ولا ينوب العروس منها سوى غيار واحد عبارة عن فستان وثوب وشبشب تذهب به إلي بيت زوجها ثم يقوم الزوج بعد ذلك بكسوتها، توزع الشيلة على العمات والخالات والحبوبات ووزيرة العروس (صديقتها) وهي التي تلازمها أثناء التجهيز والإعداد للزواج .

السنكاب :-

وهو ما يعرف في شمال ووسط السودان بالجرتق. و يتكون لدى أهل البجا من قماش من الحرير في شكل شرائح طويلة تربط على السعف الذي يجمع في شكل المكنسة ويربط فيه بالإضافة للحرير الصوف الملون والسكسك وترص بقايا الجمال (البعر) في عود السعف ويعلق السنكاب خارج منزل العروس ويظل مربوطاً حتى تضع مولودها الأول. وفي حالة عدم الولادة يظل مربوطاً لمدة عامين.

العروس لا تذهب إلى بيت الزوجية إلا بعد منتصف الليل، بعد أن ينام الناس وتنوم البهائم وتسكن الحركة، حتى لا يراها أحد، وتخرج منه قبل أذان الصبح عائدة إلى بيت أهلها، وعادة لا تعترف بذهابها إلى بيت الزوج ولا تعترف بأنها عاشرته معاشرة زوجية. وتظل هكذا حتى تظهر عليها علامات الحمل، وفي حالة عدم الحمل تظل العروس ناكرة للمعاشرة الزوجية ويحرم على العريس رؤيتها علناً حتى تكمل العامين أما أن حملت فيراها علناً بعد أن تضع مولودها .

الولادة :-

بعد ظهور علامات الحمل على العروس تظل في بيتها حتى الشهر السابع ثم تذهب إلى بيت أمها حتى عملية الوضوع وبلوغ المولود شهره الرابع، ولهن عادة الدخان مثلهن مثل نساء السودان في الغرب وفي الشمال والوسط. تبدأ في الدخان بعد أسبوعين من الولادة ويستخدمن حطب الطلح والذي تنتشر أشجاره في شرق السودان كما تنتشر في مناطق كثيرة منه.

التقشيش :-

وهي عبارة عن مأكولات – عجوة، دقيق، سمن وطحنية وهو لتغذية النساء وإكرام الأهل ويقدم على دفعتين – الأولى للنساء والثانية للنفساء، أما (الأيتود) فهو عبارة عن (كسوة) تقدم للأم وللأخوات من قبل الزوج تقديراً لمراعاة زوجته أثناء الولادة

و(أيتود) تعني (الواجب).

الرحيل :-

معروف عن قبائل البجا أنهم رحل يتنقلون من مكان إلى آخر سعياً وراء الماء والعشب، وتعرف ينابيع الماء عندهم بـــ(المقل) وهي حفر غير عميقة يسعون إليها في مراحل الخريف المختلفة بالإضافة لاعتمادهم على الآبار في حالة شح الأمطار وجفاف الينابيع وعادة الأطفال هم الذين يقومون بورد الماء بنيناً وبنات يذهبون في مجموعات وفي بعض الحالات تساعد كبيرات السن من النساء في عملية ورد الماء.

وفي ترحالهم يستخدمون الجمال كوسيلة لذلك وتكون النساء والأطفال داخل الهودج بينما يقود الرجال الجمال مشياً على الأقدام ممسكين بلجام الجمل، والمرأة لدى قبائل البجا رغم تضييق الخناق عليها إلا أنها مكرمة، وقوادة الرجل للجمل الذي يحملها من دلالاتهم على ذلك، وفي الطبخ كما أشرنا النساء يقمن بعمل العصيدة فقط، أما طهي اللحوم فهو من واجب الرجل وليس عليها أعباء تجاه زوجها، وفي ذلك يذهب (نعوم شقير) إلى ما جاء في رواية الحاجة آمنة حيث يقول:(المرأة تنسج[1] الحصر وتحوك شملات الصوف وترعى الإبل ، ولكن يُعاب عليها غسل الثياب ولاسيما ثياب زوجها، فالزوج يقبل بغسيل ثيابه وثياب زوجته أو يستأجر لها من يغسلها له) [2]

ومن شهادة الحاجة آمنة ومما أرخ له نعوم شقير، يتضح لنا أن الأعباء التقليدية التي تقع على عاتق النساء في المجتمع السوداني بشكل عام، جزء كبير منها مرفوع عن نساء البجا وهذا نوع من أنواع الاحترام للدور الطبيعي للنساء وأن ارتبط ذلك بالحمل والإنجاب، فقط ينبغي ألا يكون على حساب مشاركتها في المجتمع.. ولتكملة الصورة نتنقل إلى جانب آخر، جانب العادات الضارة في مجتمع البجا وكأي مجتمع لدينا في مختلف الثقافات السودانية ارتبطت معظم العادات الضارة بالجهل وممارسة التهميش على هذه المجتمعات وارتباط ذلك بالانتماءات العقائدية والطائفية وغيرها، مما يستدعي إعادة النظر في كل العادات التي تضر بصحة النساء وبأوضاعهن ومشاركتهن

(١)نعوم شقير –جغرافية وتاريخ السودان- صفحة (٢٣٤).

(٢)كل ما ورد من مصطلحات لغوية في شهادة الحاجة أمنة هى مصطلحات بلغة البداويت إحدى لغات قبائل البجا.

في[1] الحياة الاجتماعية، وإلقاء الضوء على ذلك نستصحب جزءاً من الورقة المقدمة في مؤتمر كرباويب من إعداد د. سهير مصطفي.

تقول الورقة:

من عاداتنا الضارة التي يجب محاربتها لنحافظ على سلامة المجتمع وصحة النساء هى عادة الختان الفرعوني والتي تنتشر في كثير من المجتمعات السودانية والشرق واحد منها وهذه العادة تؤثر على صحة الفتاة تأثيراً بالغاً حيث نجد الفتاة عندما تصل سن البلوغ تواجه كثيراً من المشاكل التي تؤثر على صحتها وليس هذا فحسب بل أيضاً تواجه كثير من المشاكل أثناء الولادة والتي قد تؤدى إلى فقدان الأم وضياع الأسرة. وفي المسح الذي أجرته بعض المنظمات الدولية بالمناطق المحررة اتضح أن ٤٠٪ من الوفيات وسط النساء في شرق السودان ناتجة عن عملية الولادة .

وأيضا من الممارسات الضارة والتي واجهتني أثناء عملي في المنطقة هي عادة التوليد التقليدي وأتباع طرق غير صحية وضارة بصحة الأم والجنين، فمثلا القابلات التقليديات يستعملن أدوات ملوثة، غير معقمة مما يهدد الأم والجنين ويؤدي للإصابة بمرض التانوس القاتل الذي أودى بحياة كثير من الأمهات. وأيضا إتباع طرق بدائية في خياطة الجرح باستخدام أدوات قاتلة ومهددة للحياة.

ومن الاعتقادات الضارة حرمان الرضيع من الرضاعة الطبيعية بمجرد حمل الأم بطفل آخر قبل إكمال الفترة الموصى بها لرضاعة الطفل، وكذلك إدخال وجبات إضافية قبل مرور ٤ أشهر من حياة المولود، وهناك أيضا عادة فطام الطفل فجأة مما يؤثر على صحته وبالتالي حياته وتعرضه للإصابة بأمراض سوء التغذية، وقد ثبت من الإحصائيات والمسح الذي أجرته بعض المنظمات بالأراضي المحررة أن (٥٠٪) من الأطفال تحت المعدل الطبيعي للتغذية .

وأن (٢٥٪) من الوفيات بسبب التغذية، وكذلك من العدات الضارة فصل الطفل (الولد) عن أمه في سن مبكرة (سن الثامنة).

ومن المفاهيم الخاطئة منع المرأة الحامل من التغذية الجيدة أثناء الحمل خوفا من

(١)قدمت الورقة في مؤتمر كرباويب/ سبتمبر/ ٢٠٠٢م تحت عنوان (العادات الضارة بالنساء في مجتمع البجا).

زيادة وزن حجم الجنين مما يؤدي إلى صعوبة الولادة وهو اعتقاد خاطئ وغير علمي ويجب التخلص منه للمحافظة على صحة الأم والجنين .

وشائع في تلك المناطق أيضاً بقاء الحامل وهي تعاني من آلام المخاض وعدم عرضها للطبيب للعادات والتقاليد إلا في حالة تعثر الولادة وبعد بلوغها مرحلة متأخرة وكثيراً ما يكون ذلك بعد فوات الأوان.

هناك عادة تمارس في كثير من المجتمعات السودانية والشرق منها وهي تزويج الفتاة في سن مبكرة حيث لا تدرك الفتاة معنى الزواج، وليس لها دراية بأهمية الحياة الزوجية مما يجعلها تمر بمراحل ليس لها القدرة على تحملها مما يعقد من حياتها المستقبلية[1] .

ومن العادات المتعلقة بالصحة الطرق التي تتزين بها المرأة في تلك المناطق ولا تراعي النظافة فيها مثل خلط (الودك) بالتراب باعتبار أنه سيكون كثيف، وكذلك عدم غلي اللبن قبل شربه، وكلها ممارسات تؤثر على صحة المرأة بهذه المناطق، كم يأتي منع المرأة من المشاركة في الحياة الاجتماعية وحرمانها من التعليم في مقدمة الأسباب التي تؤدي إلى تفشي مثل تلك العادات الضارة واستمرارها مما يستوجب وقفة جادة من الجميع في الأمر .. كانت هذه «مقتطفات من ورقة د. سهير» عن العادات الضارة، وما استصحبناه من الورقة يمثل أكثر العادات بالمنطقة ضرراً بصحة النساء وبالتأمل في الصورة المكبرة التي حاولنا عرضها باصطحاب مساهمات الآخرين بالإضافة لملاحظاتنا الشخصية. نجد أن التهميش لعب دوراً كبيراً في حياة أهل الشرق – حيث عمدت الأنظمة المتعاقبة على ترك الشرق يرزح في الجهل والمرض وتفشي الأمراض المستوطنة مثل السل دون أن تعير ذلك اهتماماً، كما عمدت الأحزاب الدينية والطائفية إلى استغلال هذه المناطق باسم الدين لمكاسب حزبية ضيقة وحولت بعض المناطق الدينية إلى بؤر مقفولة لتحقيق ذلك. وهذا أيضا يقودنا إلى ما قاله شيخ عمر عن تهميش المرأة بالشرق عند لقائنا معه في (عزة) وإجابته على سؤالنا عن تهميش المرأة فقال في عبارة قصيرة (تهميش المرأة ناتج عن تهميش المنطقة نفسها فالعليل لا يخدم العليل فإذا تعافى شرق السودان من مظاهر التهميش تتعافي منه المرأة أيضاً)[2].

(١) الودك معروف لدى غالبية النساء في السودان، وهو عبارة عن صهر شحوم الماعز والأغنام بعد فصلها عن اللحم والعظم .

(٢)شيخ عمر في لقاء العدد- عزة العدد الثاني عشر / مارس/ ٢٠٠٣م.

لكل هذه الأسباب ولهذا الواقع الذي حاولنا عكسه نحن فخورون بنجاح مؤتمر كرباويب، وفخورون بأننا استطعنا أن نخرج النساء من قراهم المعزولة في شقلوبة وبالاستاف، في اقماييت وكرباويب وغيرها من القرى المجاورة لحضور المؤتمر، وعندما طلبن منا وضع حجاب بينهن والمراقبين والإعلاميين احترمنا رغبتهن، وعندما بدأ لهن الوضع طبيعياً وطلبن إزالة الحجاب حتى يتمكن من المشاركة وإبداء الرأى سعدنا كثيراً، كان ذلك في حد ذاته انتصاراً لإرادة نساء البجا، انتصاراً صنع بأيديهن، حيث كانت المشاركة فعلية عكست استعدادهن لمعرفة ما لهن من حقوق وما عليهن من واجبات وإن انحصرت واجباتهن في الزواج والإنجاب وتم عزلهن عن الحياة العامة، وكان على المنظمات النسوية أن تثبت لهن أن الحقوق ليس بالضرورة أن تكون خصماً على العادات والتقاليد، فعاداتنا وتقاليدنا هى إرثنا الثقافي الذي لا نخجل منه على أن لا يستغل هذا الإرث ليصبح جداراً بيننا وبين متطلبات الحياة وتطورها، كانت من أبرز المشاركات (الحبوبة آمنة) والتي سأعود للحديث عنها، كرباويب واحدة من المناطق التي تعكس صورة لهذا الواقع، وهي من أكثر المناطق التي كنت أقوم بزيارتها بعد المؤتمر، فقد أصبحت تربطني بنسائها علاقة مميزة ، واذكر عند أول زيارة لنا قبل انعقاد المؤتمر كنت متخوفة لحد كبير من فشل الزيارة خاصة وأنه حكى لي عن كيف تم طرد واحدة من الصحفيات عند زيارتها لقرية من قرى النساء حيث كانت برفقة واحدة من قياديات الأحزاب (الطائفية) بالتجمع الوطنى، وكانت الصحفية ترتدى بنطلوناً، تذكرت هذه الواقعة ونحن نهم بأول زيارة لقرى النساء، رافقتنا فيها سميرة إدريس أو «سميرة بجا» كما يحلو للمقاتلين مناداتها، ولدخول قرية النساء قمنا بعمل الإجراءات التي يجب اتباعها للوصول إلى هناك وأولها أخطار مكتب الإدارة المدنية بالمحافظة لتحديد من يرافقنا لمكان تجمع الرجال والذي أشرنا له فيما قبل بـــــ(الشفت) وعادة ما يقابلك الشفت قبل قرية النساء والذي كما ذكرنا يبعد عنها بما يقارب ٢ كيلو متر تقريباً حيث نذهب إلى هناك للحصول على إذن الدخول إلى قرية النساء بعدها يتم الذهاب إليها برفقة الشخص المكلف من قبل الإدارة المدنية وهو في العادة يكون من أبناء المنطقة نفسها حيث يبقى خارج سور القرية مع السائق الذي يقلنا بالعربة إلى هناك، في تلك الزيارة الأولى بقيت ورفيقاتى داخل السور دون أن نتقدم نحو الخيام، و تقدمت سميرة نحو خيمة الحبوبة زينب والتي سمعنا عنها بأنها أم كرباويب وقابلتها لأكثر من أربعة عقود، بعد ما يقرب من الخمس دقائق طلبت منا سميرة التقدم نحو خيمة

الحبوبة، وجدت نفسي أمام سيدة يناهز عمرها الثمانين هي الحاجة (زينب عوض بشير)، تستقبلك بوجه باسم رغم كل ما تركه الزمان من علامات على قسماته، بمساعدة سميرة وترجمتها الكلام للغة (البداويت) وهي لغة المنطقة، استطعنا أن نتبادل الحديث معها وأن نعبر عن الغرض من زيارتنا تمهيداً لقيام المؤتمر، شرحنا لها لماذا نريد أن نعقد مؤتمر للنساء هنا، تجاوبت معنا إلى حد كبير وأصبحت مفتاحنا لقرية النساء بكرباويب، قامت بالطواف معنا على كل الخيام وعرفت النساء بأسباب الزيارة، كنت أشعر بتوجسهن، كن يجلسن في أماكنهن داخل الخيمة دون حراك وتحت حجاب كامل لا تستطيع أن ترى في الواحدة منهن غير عين واحدة، السلام بارد، لا تكاد أصابعي تلمس أصابع الواحدة منهن حتى تسحب يدها بشكل سريع، تكررت زياراتنا بعد المؤتمر وتبدلت أحاسيس النساء تجاهنا، إذ أصبح ما أن تسمع القرية صوت العربة التي تقلنا حتى يخرجن النساء من خيامهن لاستقبالنا في السور الذي يحيط قريتهم، بعدها عرفت كيف يكون سلامهن، السلام الحار لديهن يكون (بالضغط المتكرر على يدك)، يضغطون على اليد بشدة في تكرار مستمر ولا يعرفن « سلام الأحضان » السائد لدى معظم القبائل السودانية، هكذا أصبحت علاقتنا بالنساء في كرباويب وفي كل الأراضي المحررة وكان لكرباويب طعمها المميز حيث أصبحت من أكثر المحطات التي ارتاح فيها، وقرية النساء واحدة من دوافع ذلك الإحساس، وظلت الحبوبة زينب هي الواحة التي نستريح عندها ونلملم الأنفاس لننطلق من جديد، ففي حضرتها نقهر الإحساس بالتهميش ويورق الصمود والتحدي في دواخلنا، فأكثر ما أكون سعادة عندما تحكي لنا الحبوبة زينب عن كيف ظلت وعلى مدى أربعين عاما وأكثر تمارس مهنة التوليد وتستقبل يدها كل مولود قادم إلى قريتها وكيف تشعر بالسعادة تجاه ذلك، وحتى بعد أن تقدم عمرها ظلت تشعر بأنه واجب عليها ينبغي ألا تتوقف عنه، وعلمت من النساء أنها طوال هذه السنوات كانت ترفض أن تتقاضي أجراً ويكتفي أهل القرية بتقديم الهدايا لها، وكما كانت الحبوبة زينب من أبرز المشاركات في النقاش في المؤتمر كانت من أكثر المتحمسات لدخول لجان فرعيات التجمع النسوي بقرى النساء، وكانت تمتلك قرارها عكس باقي النساء، حيث كنا نختار زوجات الناشطين في التجمع الوطني ومؤتمر البجا، نذهب لإقناعهن بدخول اللجان ونطمئنهن بعدم تسجيل أسمائهن إلا بعد اتصالنا بأزواجهن واخذ الموافقة منهم، وبهذه الخطوات كنا ننجح في تكوين الفرعيات في القرى المختلفة بالتحايل على العادات حيناً وباحترام التقاليد والأعراف في

كل الأحيان.

هذه صورة من صور كثيرة لأوضاع النساء في قبائل البجا ومجتمع الشرق بصورة عامة، ذلك المجتمع الذي ظلّ يعاني على مر العهود من التهميش والنسيان حيث تنعدم فيه مقومات الحياة وعلى رأسها مياه الشرب حيث تعتمد تلك المناطق على مياه الأمطار وما تجود به عليهم من كل عام لتمتلئ الحفاير ويزيد معدل المياه بالآبار التي في الغالب ما تقع خارج القرى، وتبعد عنها بعدة كيلومترات ويقع جلب المياه على عاتق النساء كبيرات السن والبنات دون سن البلوغ وكذا الأولاد دون سن الثامنة وهو العمر الذي يغادر فيه الطفل قرية الأمهات والأخوات ويذهب حيث يوجد الرجال كما ذكرنا، لذا نجد مشكلة المياه بتلك المناطق تزيد من معاناة النساء والأطفال معاً.